القسم الأول

أين الحقيقة...

في الحملة على العقل العربي

الفصل الأول

العقل العربي المعاصر متخلف

فهل ينقذه التفلسف؟.. فإلى أين.. ومع مَن؟

كان طبيعيًا أن ترتفع الأصوات عالية – في السنوات الأخيرة – بين الدعاة المذهبيين من المثقفين، من كل اتجاه، ومن حصاد بلبلة عصر الاستعمار، في محاولة محمومة لتغليب منهج من مناهج التفكير الفلسفي الأوربي المذهبي، المتصارعة من حولنا، والنشطة بغزواتها الفكرية فيما بيننا، وذلك – بزعمهم – طلبًا لوحدة الرأي، ووحدة النظرية الفكرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي تتحقق بها وحدة شعوب الأمة العربية في العالم المعاصر، وبخاصة بعد أن ظهرت وطأة التحديات العلمية، والحضارية، والعسكرية، بين القوى العالمية المتنازعة على السيطرة بمذاهبها وأهدافها على مصير ومستقبل العرب، الذين لا يزالون في متاهة التخلف والاغتراب، وبرغم استقلال شعوبهم، متفرقين.. ومتنازعين.

وهكذا أصبح «العقل العربي» الذي هو الأمل المدخر، والجهاز الفعال للخروج بالعرب سالمين ومتحدين من هذه البلبلة الفكرية، إلى طريق محدد، ومنهج واضح – هدفًا عامًا لكل هذه الاتهامات التي انصبت عليه بأوصاف «التدهور» و«الشلل» و«السلبية» من أعلى هؤلاء الفلاسفة المذهبيين صوتًا، والذين اتفقوا برغم تضارب وتناقض فلسفاتهم على أن يحاولوا زحزحة «العقل العربي» باسم المعاصرة – عن ماضيه، وعن تاريخه، وعن منهج أصالته، فيما لا يزال يستمسك به من الدين، وإن تفرق عبر شتاته الطويل حول تدبر الدين الحق، في مصادره الصحيحة الباقية في حوزته إلى اليوم، بقاء الشمس والهواء والحياة، لكي يصحح ويجدد التزاماته به، وبمبادئه الحية، القابلة للتجدد على أصولها، وهي تسابق العصر، نحو آمال العصر، وفوق تحدياته..

إنه في هذه الغمرة من تخلف العرب، ومن غياب وحدة المؤمنين بمقومات «العقل العربي» الذي أضاء سماء العالم بعد الإسلام قرونًا طويلة،

والذي كشف البرهان العلمي والحسي على الله الحق قبل الإسلام وبعده، والذي عقل وتدبر بيان القرآن الكريم وآمن بمحكماته وشرائعه، ونقل بحضارته العربية الإسلامية منهج القرآن العلمي، ودعوته للسلام والصفح، وحضارته العمرانية الإنسانية، إلى أقصى الأرض شرقًا وغربًا.. إنه في غياب وحدة هؤلاء المؤمنين، وفي غمرة تخلفهم وتفرقهم وضعف أصواتهم — كانت حملة هؤلاء المتفلسفين على «العقل العربي» ضارية، ليس من أجل التذكير باسترجاع ذاته وأصالته، واستعادة منهجه ونشاطه، بل من أجل استحثاثه ليتنكر لطبيعته، وليتناقض مع حقيقته، مستسلمًا لمن يريدون بمحض السخرية منه أن يضعوا اسمه على عقل أوربي يناقضه، وأن يروجوا لأفكارهم المعادية له على لسانه..!

وربما كان أكثر هؤلاء الفلاسفة مثابرة على هذا الاتجاه هو الدكتور زكي نجيب محمود، المتعاطف مع الفلسفة الوضعية التي ظهرت بها جماعة فيينا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، والمتعاطف أيضًا مع جماعة «إخوان الصفا» التي حمل فلاسفتها في مرحلة من مراحل الصراع الفارسي ضد الحكم العربي نفس شعار الزراية بالعقل العربي، وساروا طويلًا في مجال البلبلة يحملون دعوتهم السرية والعلنية، التي يرون بها أن إضعاف العرب لصالح الشعوب الأخرى يقتضي العمل على «مزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية» من طريق فلسفات مختلطة غامضة نحو هذا الاتجاه كالتي ظهرت في كتب الفارابي وابن سينا من دعامات هذه الجماعة.

بمثل هذه التأثرات الفلسفية قام الدكتور زكي نجيب محمود بتفجير واحدة من قنابله الدخانية في وجه «العقل العربي» بمفهومه التاريخي

العام، وذلك في مقال مثير نشرته مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ 11 إبريل سنة 1977 تحت عنوان «العقل العربي يتدهور»!!

المنهج العلمي:

كان هذا المقال الحانق الثائر مقدمة لواحدة من حملات الدكتور زكي نجيب محمود على «الأصالة» وعلى «أفكار السلف» في مجالات صحفية أخرى، وذلك بهدف خلق الظروف المناسبة لزرع واستنبات أفكاره ذات الجذور والخصائص الفلسفية الأوربية في التربة التي لا تتقبل الاستجابة لها، وهي الأفكار التي يقدمها لغير من يحتاجون إليها بمبررات رجراجية، وصورية، لا تصمد للنقاش العلمي، ولا تملك من دوافع حملته الضارية على مقومات الشعب الذي ينتمي إليه إلا هذا الدافع المخجل وهو عجزه – عقليًا – عن استيعاب وتقبل وفهم هذه المقومات الأصيلة!

تحت عنوان كبير بهذا المقال الحانق الساخر يمارس الدكتور الفيلسوف الوضعي الصوري اتهامه للعرب المعاصرين بالرجعية السلفية التي تصرفهم عما حولهم من حركة التقدم العلمي الصناعي، فهو يقول بلسانهم: «إننا نطالب بالعودة إلى السلف في الراديو الذي لم يصنعه السلف»!.. ومعنى هذا أنه في سخريته التي يفقد فيها صوابه يعلن عن تعجبه من تطاول هؤلاء العرب السلفيين الذين يقفون وراء المذياع – وهو اختراع أوربي – لكي يطالبوا بالعودة إلى شرائع المؤمنين من السلف، وإلى منهج حياتهم، في حين كان الأجدر بهم أن يتخلوا عن هذا «الطيش» ويبادروا إلى إلقاء كل مقاليدهم لهذه الدول الأوربية المتقدمة التي اخترعت الراديو، وما هو أعجب منه، من أدوات العلم الحديثة، وبذلك يمكن أن يتطوروا في الاتجاه الصحيح وفق ظروفهم الخاصة..!!

وبهذا المثال من أنواع سخرية الفيلسوف الوضعي الدكتور زكي نجيب محمود من العقل العربي، القديم والمعاصر، يقدم لقرائه صورة لمدى احترامه للعقل العام، وللحقائق التاريخية الساطعة، وهو ينسى أو يتغافل عن أن أئمته وسادة فكره من الأوربيين لم يعرفوا «المنهج العلمي» التجريبي إلا بعد أن تحرروا على أيدي العرب المسلمين، وفي مجال العلوم الطبيعية، من التأثير الفلسفي التجريدي والصوري والخرافي لأرسطو بصفة خاصة، ولغيره من فلاسفة اليونان بصفة عامة، وذلك في عصر نهضتهم المتأخرة، التي يدينون بها، وبما تم لهم بعدها من الثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية حتى اليوم، لهؤلاء العرب المؤمنين، الذين وجهوا عقولهم الأوربية الفلسفية باتجاه العلم، وإن لم يستطيعوا – بسبب الطابع الفلسفي العدواني والعنصري للرجل الأوربي الأبيض – أن يقودوهم إلى الإيمان!

بين الحرية والحجر:

ويعرض الدكتور زكي نجيب محمود في هذا المقال لواحدة من أمنياته العدوانية على العقل العربي فيقول: «نحن متحررون بدرجة كبيرة في ناحية التفكير النظري الفكري والفلسفي داخل الجامعات المصرية، ففي قسم الفلسفة بجامعة القاهرة تعرض كل الاتجاهات الفكرية والفلسفية السائدة في العالم الأوربي شرقًا وغربًا، وهذا لا يحدث في الولايات المتحدة، لكن في اللحظة التي ينزل فيها المفكر العربي إلى تيار الفكر الجاري في الحياة العلمية ليشارك في المشاكل المعروضة في الصحف والمجلات يحس أنه ليس حرًا أن يقول ما يريد أن يقوله!!.. وربما أحس بهذه المسئولية من داخل نفسه قبل أن تفرضها عليه هيئة رسمية»!

ومعنى هذا أن الدكتور زكي نجيب محمود يريد أن ينقل حرية النظر والإطلاع على الفلسفات العالمية المختلفة داخل الجامعات إلى نوع من

شمول الانشغال بها بين جميع فئات الأمة العربية. والواقع أن حرية الإطلاع والنظر في هذه الفلسفات الأوربية المتناقضة مكفولة في مصر وفي أكثر البلاد العربية في جميع وسائل الإعلام، وفي المكتبات التي تبيع جميع أنواع الكتب الفلسفية بجميع اللغات.. والدكتور الفيلسوف الوضعي نفسه يكتب ما يشاء من آرائه الفلسفية العجيبة والملتوية في أمهات الصحف اليومية والأسبوعية.. فماذا يتبقى ليشعر بعد ذلك أنه حر مثل غيره في أن يقول ما يقوله؟!

الغالب أن هناك ما هو أدهى مما يقوله يريد أن يقوله.. فما يكون هذا «الأدهى» إلا أن يطالب هو بالحجر على أفكار السلف.. الذين لم يخترعوا الراديو والتليفزيون، ولا أقمار التجسس والقنابل الذرية، ولا مستحدثات حرب الجراثيم وصدمات الإشعاع.. ولكنهم بكل التطاول في نظره – أي هؤلاء العرب – يواصلون في مجال حرية الأفكار عرض دعوتهم، وتنمية حججهم، باتجاه وحدة شعوبهم، وألفة قلوبهم، على هذا الدين القيم، الذي لا يزال الإيمان بصحته يقوم في مصادره من القرآن والحديث، ومن ملكوت السموات والأرض والفطرة – على البرهان العلمي والحسي، الذي لا تناقض به في مجال التجدد بين الأصالة والمعاصرة!

لماذا لا نتفلسف:

ويمضي الدكتور زكي نجيب محمود في مقاله الحانق فينبه إلى أن علة تخلف العرب ترجع إلى أنهم لم يتوصلوا بعد إلى «فلسفة» خاصة بهم.. وهو في ذلك يقول:

«أريد أن أوضح أننا لم نبلغ بعد الدرجة التي تتضح لنا فيها فلسفة خاصة حتى نشعر أو لا نشعر بالتحرر فيها، وكل الاتجاهات الفلسفية التي نعرضها منقولة عن الغرب الأوربي، ولكن في كثير من الحالات نضع أنفسنا في قلب المادة التي نعرضها فتأخذ لون شخصية الأستاذ. فليس لنا مدارس فلسفية، إنما كل الاتجاهات كما قلت بصفة عامة منقولة. ولا توجد اجتهادات عربية في هذا المجال مطلقًا. لأن الفلسفة في كل العصور والظروف تأتي بعد أن تكون هناك أصالة فكرية! فتقوم الفلسفة بعد ذلك بوضع المبادئ لهذا الفكر الإسلامي الأصيل كجماعة المتكلمين، وجماعة الفلاسفة، ونحن إلى الآن لم يتكون لنا فكر عربي أصيل فيما يختص بمشكلات العصر»!!

وهكذا وراء قناع شفيف يكشف الدكتور زكي نجيب محمود أستاذ الفلسفة الوضعية التي لا تؤمن بما ليس له في استعمالات اللغة أي وجود محس في الواقع مثل كلمات: الله.. الوحي.. الملائكة.. النبوة.. الآخرة.. الجنة.. الخ – أقول أنه يكشف عن دعوته إلى تجنيد هذا النوع من المفكرين المتفلسفين الذين يعيدون على أرض العرب والمسلمين، بلغة وظروف العصر، تلك المرحلة من التخلف والشتات المهين عندما «تفلسف» باسم الإسلام متعالمون ومتكلمون من شراذم فارسية شعوبية، ناقمة على العرب، وغير قادرة على تدبر القرآن، والالتزام بالدين، من المتكلمين المتخبطين، ومن المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، فكان ذلك أول ظواهر التشتت والتفرق في حياة المسلمين، وأول التشعب في فهم أساسيات الحضارة العربية الإسلامية. ووعي مفهوم "الدين الحق" بعيدًا عنه، أو قريبًا منه.. مع استمرار عوامل التفرق والشتات!

الرؤية الصادقة:

لقد استغل الدكتور زكي نجيب محمود أحد رواد هذه الحملة الفلسفية الملتوية على «العقل العربي» قيام هذه الظواهر التي تؤكد تخلف العرب تحت مؤثرات كثيرة ومتلاحقة – عن المنهج السليم في التفكير بعقلهم العربي المبين لسانًا، والمؤمن اعتقادًا، وبعد أن اغتربوا بالبعد عن مقوماته باللغة والتاريخ والحركة.. عن أسباب قوتهم، ووحدتهم، وألفتهم، بهذا العلم الذي يهدي إلى الإيمان، وبالأصالة التي لا تتخلف عن العصر..

لقد استغل هو وغيره من الفلاسفة الشرقيين والغربيين – وتحت مبرر مناخ الشتات وأزماته – هذه الظواهر الدالة على افتقاد النشاط الحقيقي والزاخر للعقل العربي، بافتقاد لغة عربية مبينة، وثقافة عربية رائدة، ورؤية عربية جامعة، فقال هو ورفاقه بأقوالهم الفلسفية الرجعية الملتوية من أجل علاج ما زعموه من تدهور العقل العربي، وشلل العقل العربي، وسلبية العقل العربي وأزمة العقل العربي..!!

هذا بينما الطريق يبدأ من سلامة الرؤية الفكرية لهذا الواقع المتحرك حولنا، في الطبيعة المرئية والمسموعة، وفي أحداث العالم المحيط بنا، وفي واقعنا الديني الإسلامي نحن العرب داخل هذا الواقع الكبير المتحرك والمتغير وفق قوانين كنا على هذه الأرض أول من كشف عنها، وعمل في ضوء الفهم الإنساني لها، كما كنا أول من قدم أعظم العطاء بهذا الفهم والعمل لجميع من يقفون اليوم في صفوف أعداء أصالتنا ووحدتنا وتقدمنا!!

نعم.. إن طريق العرب للتقدم يبدأ من هذه الرؤية الشاملة التي يتحرر بها العقل العربي بكل أصالته من كل عوائقه، حيث يرى الماضي جليًا في

صورة الحاضر أو الواقع، وحيث تكون بداية الطريق فعلًا هي مواجهة وملاشاة هذه الظواهر نفسها على أزمة التخلف بين العرب.. أزمة التدهور في لغتهم المعبرة عنهم، وعن وحدة الرؤية والكلمات والمعاني والغايات في حياتهم المؤمنة.. كما سنوضح ذلك في الفصول القادمة.. إن شاء الله، مستهدفين هدف هذه الحجة البالغة على أن أفضل ما هو للعرب، بدليل لغة العرب، ودين العرب، وتاريخ العرب هو ما اختاره الله للعرب، وأملًا في أن نبلغ من فضول الدكتور زكي نجيب محمود ورفاقه بهذه الدعوة الملحة والغريبة على العرب بأن «يتفلسفوا» إلى أحد رأيين.. فإما أن يرجع الدكتور زكي إلى أصالته فيدع دعوة التفلسف إلى دعوة الإيمان، وإما أن يمضي حرًا بفلسفته ويكف عما يدعو العرب إليه بغير حجة أو برهان!